مقدمة

للدكتور طه حسين بك

لست أدري أي الأمرين اروع روعة وأجمل جمالا وابلغ اثرا في القلوب واشد ازدهاء للعقول . اهو قصة هؤلاء النفر الذين ملك عليهم أمرهم حب الخير وأرادوا أن تكون حياتهم ونشاطهم وجهودهم مصدر نفع للناس . ام هو هذا الكتاب الذي يصدر ما بذلوا من جهد وما احتملوا من مشقة وما بلغوا من نجح

لقد كنت اسمع أنباء هؤلاء النفر بين حين وحين فيروقني ما أسمع واتمنى لهم نجحاً وتوفيقاً . ولكن لم أكن اعلم من دقائق أمرهم شيئاً ، انما كنت أقول لنفسي جماعة من المصريين المثقفين الأخيار رأوا حولهم شراً كثيراً فأرادوا أن يزيلوا منه شيئاً ولو يسيراً فما ينبغي إلا أن نحمد سعيهم ونعينهم عليه . ولكن أحدهم يقبل عليّ ذات يوم ويحمل اليّ هذا الكتاب مخطوطاً فلا اكاد امضي في قراءته شيئاً حتى يتغير رأيي فيهم وفيما يعملون . وإذا أنا امضي في القراءة متتبعاً لهذه القصة الرائعة مستمتعاً بما فيها من جمال ساحر باهر لأنه يسير سائغ لا يظهر فيه تكلف ولا عناء وانما هو شيء سمح يمضي في طريقه هادئاً مضطردا كما يجري الجدول هادئاً مطمئناً وكما تجري الريح رخاء لا عنف فيها ولا عسر

وكيف لا يعجب المصري الذي يحب وطنه ويضيق بحاله هذه المنكرة ويتمنى أن يراه في حال خير منها حين يرى هؤلاء النفر المثقفين قد خلا بعضهم الى بعض كما تعود الشباب المثقفون أن يخلو بعضهم الى بعض ولكنهم لم يجتمعوا على ريبة ولم يجتمعوا على عبث أو لهو ولم يجتمعوا على هذا الفراغ المرئي الثقيل الذي يستعين الشباب عليه بالدعابة والسخف والوان اللعب البرىء أو البغيض . بل لم يجتمعوا ليتحدثوا عن انفسهم ولا عما يشغلهم من عسير امورهم ويسيرها ومن جد حياتهم ولعبها ومما يلقون من المصاعب ومما يتاح لهم من النجح وانما خلا بعضهم الى بعض وتحدث بعضهم الى

بعض في هـذا البؤس البائس واليأس المنكر والشقاء الشامل والشر الذي يلقونه حين يغدون الى أعمالهم وحين يروحون الى دورهم واقبل بعضهم على بعض يتساءلون كيف يطمئن الانسان الى الحياة أو تطمئن اليه الحياة . وكيف يستمتع الانسان بنعيم أو يستعذب لذة من اللذات أو يستخفه امل من الآمال اويزدهيه ارب من الأرباب وهو لايغدو من داره الا رأى شرا ولا يروح الى داره إلا ورأى شرا ولا يخطو خطوات ضيقة أو واسعة إلا عثر ببؤس أو يأس أو ألم أو شقاء . اقبل بعضهم على بعض يتساءلون كيف تطيب الحياة للانسان وهو يراها تعصف بمن حوله من امثاله الذين خلقوا للنعمة واليسر والرغد والهدوء . ولست ادرى اكانوا يذكرون هـذا البيت الخالد من شعر ابي العلاء

ولا هطلت عـلي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البـلادا

ام لم يكونوا يذكرونه ولكني احقق انهم كانوا يجدون في اعماق نفوسهم ودخائل قلوبهم وأثناء ضمائرهم هـذا الشعور الذي اشقى ابا العلاء والهمه هذا البيت الخالد — إلا أنهم لم ينعطفوا على أنفسهم ولم ينحنوا على شعورهم ولم يعكفوا على آلامهم ولم يتعزوا عما كانوا يجدون بنفثة المصدور يفرجون بها كربهم ويتخففون بها مما يثقل نفوسهم من الهموم والحسرات

لم يذهبوا مذهب ابي العلاء الذي لم يجد الى العمل سبيلا ففرج عن نفسه ووعظ الناس وحثهم على أن يعملوا وانما وجدوا من انفسهم قدرة متواضعة على العمل فلم يبطئوا ولم يستأنوا ولم يترددوا وانما شكوا غـير طويل ثم استقبلوا امرهم حازمـين عازمين وجـدوا في جهادهم حتى ارضوا انفسهم وارضوا من حولهـم خلقاً كثيراً

هذا وحده رائع كل الروعة يملأ نفوسنا حين نعرفه املا وثقة ولكن هنا ما هو اروع من ذلك وادعى الى الأمل والثقة فهم قد ملكوا أنفسهم

وحزموا أمرهم ولم يستجيبوا للعاطفة إلا بعد أن استأمروا العقل فاحسنوا استشاره وشاوروه فأحسنوا مشاورته . ولو قد استجابوا لعواطفهم في غير استشارة للعقل ولا استخارة للرأى لكانوا خليقين أن يطلب كل منهم الخير من طريقه ماوجد الى طلبه سبيلا وما احسن على طلبه قدرة ولتفرقت جهودهم كما تتفرق قطرات الغيث في رمال الصحراء المجدبة . ولكنهم فكروا وقدروا وتدبروا وانتهى بهم هذا كله الى أن يختاروا لعملهم حقلا رأوا انهم يستطيعون إن زرعوا فيه أن يحصدوا لا لأنفسهم بل لمواطنيهم بل لفريق قليل من مواطنيهم وشيء خير من لاشيء والترفيه على القلة القليلة خير من اضاعة الحياة والجهود فى غير نفع ولا غناء . وهذا الحقل الذي اختاروه هو حقل الطفولة والصبا فهم قد استبانوا أن الشباب الذين تقدمت بهم السن شيئاً قد صاغتهم حياتنا الاجتماعية السيئة صيغة بغيضة ليس من الممكن أو ليس من اليسير تغييرها . فتركوا الشباب والكهول والشيوخ لما كتب عليهم من استقبال الحياة بما فيها من خير وشر وعمدوا الى الأطفال والصبية يحاولون أن يصلحوا من أمرهم فى حياتهم المادية والنفسية ما استطاعوا الى الاصلاح سبيلا ثم هم بعد ذلك لم يعمدوا الى هذا الاصلاح مبتكرين أو مرتجلين أو متعجلين وانما فرضوا على أنفسهم أن يبدأوا العمل من حيث ينبغى أن يبدأ فخالطوا الأطفال وعاشروهم فى الشوارع والازقة وجعلوا يرفقون بهم ويرقون لهم ويتألفونهم فى كثير من الصرامة الباسمة والحزامة الحلوة حتى اطمأن الصبية اليهم واطمأنوا هم الى الصبية واتصلت مودة طريفة بين الكبار والصغار اتاحت للكبار أن يدرسوا ويستنبطوا ويرسموا الخطط وينفعوا فى أثناء هذا كله على نحو ما وأتاحت للصغار أن يأنسوا ويطمئنوا ويذوقوا طعم المودة ويحسوا حرارة الصداقة ويشعروا بأن فى الحياة شيئاً غير الألم والشقاء وما ينتج عنهما من فساد الطبع وغلظ الذوق وانحراف الخلق وانطواء النفوس على الخوف والريبة والضغينة والبغضاء

ثم جعلوا يسجلون ملاحظاتهم ويستخلصون منها نتائجها ويقيسون بعض

هـذه النتائج الى بعض ثم يتدارسون ويتساءلون ويتفقون آخر الامر على تحديد العلل ووصف ما ينبغي أن تعالج به من طب القلوب والنفوس

فلما استقام لهم من هذا الجهد الخصب المتصل شيء يشبه أن يكون خطة ونظاما اقروه فيما بينهم ولكن لا على أنه قانون صارم بل على أنه منهج مرن قابل للتغيير والتبديل حين تدعو الحاجة والظروف الى التغيير والتبديل ثم استقبلوا عملهم فأنشأوا ما انشأوا من معهد ونظموا مانظموا من ناد وأصلحوا ما أصلحوا من حياة فريق من أبناء الشعب متواضعين لا يعرف الغرور اليهم سبيلا ولا تجد الكبرياء الى نفوسهم منفذا وانما هي الخدمة الخالصة تصدر عن قلوب محبة للخير وعن عقول مدبرة لهذه القلوب . وقد أراد الله أن يجزيهم عن جهودهم هذه الطويلة الثقيلة أحسن مايجزى العاملين المخلصين فأرضاهم عن جهادهم وارضى الناس عن جهادهم ، واى الناس ، الصبية الذين خلقوا ليكونوا ابتسامة على ثغر الحياة فأبت الظروف إلا أن تجعلهم عبوساً وتقطيباً ، أرضاهم الله عن جهادهم وأرضى عنهم تلاميذهم هؤلاء الصغار ولكنهم لا يقنعون بما بلغوا ولا يقفون عندما حققوا . واخص مايمتاز به حب الخير انه شيء يعرف الناس اوله ولا يعرفون آخره وان قليله يغرى بكثيره واخص ما يمتاز به خيار الناس انهم لا يعرفون فى الخير قناعة ولا زهدا وانهم لا يبلغون من الخير منزلة الا سمت نفوسهم الى منزلة ارقى منها فهم لا يعرفون الهدوء ولا يطمئنون الى الدعة وهم لا يريحون ولا يستريحون وانما هم القلقون دائماً ساعون دائماً طامحون الى غير مدى . لم يقنعوا اذن بما اتيح لهم من نجح وانما أرادوا أن يضيفوا الى نجحهم نجحاً آخر فيضاعفوا الجهد ويتوسعوا فيه من جهة وان يقصوا قصتهم على الناس ويعرضوا عليهم ما لاحظوا وما استنبطوا وما عملوا لعل من الناس من يرى فى سيرتهم عوجا يقومه بالنصح والنقد وهم أحسن الناس استعداداً لقبول النصح والانتفاع بالنقد لأنهم لا يبتغون بما يعملون إلا الخير الخالص من كل شائبة . ولعل هذه القصة وهذه الملاحظات أن يقرأها الناس فتثير فى بعض

النفوس ميلا الى أن يذهبوا مذهبهم أو مذهباً خيراً من مذهبهم فيكون في ذلك نفع الى نفع واصلاح الى اصلاح وفي هذه القصة وهذه الملاحظات بعد ذلك علم لمن يريد العلم الخالص علم يتصل بالحياة الاجتماعية لفريق من صبية المصريين وعلم يتصل بالحياة النفسية لفريق من هؤلاء الصبية أيضاً . أما أنا فقد قرأت هذا الكتاب فتعلمت منه علماً كثيراً ووجدت في قراءته متاعا أدبياً عظيما وإذا كان هؤلاء النفر من المثقفين الأخيار لا ينتظرون ولا يحبون أن يلقوا من الناس على عملهم جزاء أو شكورا فاني استأذنهم في أن أهدي اليهم اخلص الشكر وأصدقه وأطيب التحية وأذكاها لأنهم تفضلوا فأتاحوا لي قراءة هذا الكتاب وشرفوني حين رغبوا الي في أن أقدمه الى القراء .

طه حسين